محمد تقي القُمّي في القاهرة

الشيخ د. جعفر المهاجر

(٠)

إن السِّيرة المُدهشة للفقيه والدّاعية الإيراني محمد تقي القُمّي تُظهر للمتأمّل أن العالَم الإسلامي ، حتى في أحلك الظروف ، لم يُعدَم الرجالَ المُستعدّين للبذل دون حدود في سبيل ما يُؤمنون به . وللعملِ للصّالح العامّ ، دونما كبير أملٍ في النُّجْح الشخصي . وبأدواتٍ بسيطةٍ تعتمدُ على عدالةِ ووَجاهةِ أُطروحتهم . كما تُظهرُ لنا أن الأدواءَ التي تسكنُ الوُجدان الإسلامي ، والتي نمَتْ في ظلِّ وبرعايةِ أجيالٍ من اللاعبين السياسيين ، ورَمَتْ إلى تشويه الوُجدانِ الجامعِ ، ليستْ بالعُمق الذي يلوحُ لنا . وأن من المُمكن عكْسُ اتجاهها ، بحيثُ تُعيدُ إنتاجَ ذاتها وذاتيّتها الجامعة ، الكامنة خلفَ أسوارٍ عاليةٍ من الترذيل الكلامي والتهميش الاجتماعي . التي برع في تدبيجها وتبريرها المُثقّفون الرّسميّون ، لحساب سُلطةٍ لا ترمي إلى غير الاستيلاء على الحُكم ، عبْرَ سياسة فرْزِ القاعدة الشّعبيّة إلى فريقين ، أحدهما مُحقٌّ في كلّ شئ ، والآخَر مُبطِلٌ في كلّ شئ . وطبعاً هي تأخذ جانب " المُحقّ " ، وتضطهدُ وتُهمّشُ الجانبَ " المُبطِل " . وبهذه الوسيلة تكسبُ إلى جانبها فريقاً ، يرى إليها حصْراً بوصفها نصيرةً لـ " الحقّ " ، الذي لا يُهدّده إلا الفريق الآخَر " المُبطِل " . وفي هذا السّياق من الحِراك تضيعُ الحقوقُ السياسيّة للفريقين كليهما . بل وتضيع أيضاً حصانةُ الأمّةِ . وتغدو جسماً مُفكّكَ الأوصال ، عاجزاً عن التراصّ قِبالَ ما يُهدّدها . وفي تاريخنا القديم والقريب أمثلةٌ كثيرةٌ على هذه الآليّة الهادمة .

(١)

سيرة محمد تقي القمّي هي حكايةُ عمرِ إنسانٍ وهبَ حياته خالصةً لقضيةٍ واحدةٍ ، هي هدْمُ الجدران العالية التي ارتفعتْ بين مذاهب المسلمين ، وإحلالُ التواصل محلَّ التقاطع ، وتغليبُ الحوار على التنابُزوالترذيل ، والاعترافُ بحقّ الجميع على حدٍّ سواء بالخلاف والاختلاف . وفي هذا السبيل أعدّ نفسه إعداداً دقيقاً ، بحيث ملكَ أدواتِ العمل فيما أوقف نفسه عليه . ثم هجرَ الأهل والوطن ليعيش غريباً في بلدٍ لا سابقةَ له مع أهله ، وليس له بينهم مَن يعرفه أو يألفه . قانعاً بحياةٍ فقيرة ، بحيث لم يملُك يوماً بيتاً لسكنه ، ومن المتاع واللباس

إلا ما لا غنىً لإنسانٍ عنه . وركب من صنوف المخاطر والمشاقّ ما لا يركبه إنسانٌ يُفكّرُ في الحدّ الأدنى من أمرِ نفسه وهناءِ عيشه . فضرَبَ بذلك لجميع مَن عرفوه مثلاً في نُكران الذات ، والإخلاص في العمل ، والتجرّد من الغرض . فضلاً عن التواضع ، وطولِ النفَس ، وصبْرِ النفْس ، وبراعةِ الخطاب . وبهذه الصفات نجحَ في بناءِ لحظةٍ من أروعِ اللحظاتِ في تاريخنا الحديث . بدا فيها وكأن جزءاً كبيراً من الجدران العالية التي بناها البناؤن بين المذاهب ، غالباً بسؤ نيّة ، وأحياناً بحُسنها ، قد سقطتْ وتهاوتْ . وأن الباب قد انفتح عريضاً أمام وجوهٍ باسمةٍ ، تتلاقى وليس بينها إلا الهُويّة الجامعة للأُمّةِ ومصلحتها . ممّا يستحقّ أن يكون اليومَ درساً لكلّ المسكونين بالقلق على المستقبل يستحقّ أن يُقرَأ ويُستعاد .

(٢)

وُلِدَ محمد تقي بن أحمد القُمّي في مدينة قُمّ المُقدّسة سنة ١٩١٠م. وكانت المدينةُ العريقة يوم وُلد فيها قد اتخذتْ طريقها ، على يد الشيخ عبد الكريم الحائري ، باتجاه نهضتها الثانية ، بوصفها أهمّ مركزٍ للدراسات الدينيّة في إيران . ومع أن الأسرة التي وُلد فيها كانت قُمّيّة ذات مكانة في المدينة ، بما أنجبته من فقهاء معارف ، فإن الفتى محمد تقي تلقّى الدراسة الابتدائيّة والثانويّة في المدارس الحكوميّة في طهران . ثم التحق فيها بـ "المدرسة العُليا للآداب" ، ونال إجازتها . وفيها أحسن اللغة الفرنسيّة . ولكن أولياءه حرصوا في الوقت نفسه على تلقينه الدراسة التقليديّة المعمول بها في الحوزات الدينيّة . فحفظ القرآن العزيز . ودرس علوم العربيّة ، من نحوٍ وصرفٍ ومعاني وبيان وبديع . ثم الفقه وأُصوله .

هكذا كان كلّ شئ في سيرته حتى هذه المرحلة يدلّ على أنه يُعَدُّ أو يُعِدُّ نفسه ليكون عالم دين ، شأن أجيالٍ من رجال أسرته . ولكن الشابّ كان يُضمرُ في نفسه أمراً .

ففي السنة ١٩٣٦م تخميناً ، أي يوم كان في السادسة والعشرين ، غادر وطنه واتجه إلى لبنان . واستقرّ به المقام مُدة سنتين في بلدة كيفون . حيث انصرف انصرافاً تامّاً إلى إتقان التحدّث بالعربيّة كأهلها . وتلك خطّةٌ رأينا مثلها في سيرة مواطنه جمال الدين الأسدآبادي ، الأكثرشُهرةً باللقب الذي اختاره لنفسه : الأفغاني ، كتماناً لهُويّته القوميّة والمذهبيّة . الذي أقام في النجف بضع سنين ، يطلب العلم كسائر الطُلاّب فيها . قبل أن ينطلق في رحلته الغرائبيّة شرقاً وغرباً . رافعاً صوته بالدعوة إلى إعادة الحياة إلى النظام الإسلامي .

وكمثل سلفه ومواطنه الأفغاني ، ما إن رأى أنه قد أتمّ إعداد نفسه للمُهمّة التي اختارها لنفسه ، حتى اتخذ طريقه إلى مصر. ومُذ ذاك ارتبطت حياته وكلُ نشاطه بقضيّةٍ واحدةٍ ، اختصرها في شعارٍ استحدثه هو لنفسه : **التقريب بين المذاهب الإسلاميّة** . عليه دار

ما بقي له من العمر. أي ما يزيدُ قليلاً على نصف القرن من الزمان .

والمعروف ، وما تُكرّرُ ذكرَه المصادرُ القليلةُ المعنيّة بسيرته ، أن الحافز الذي وجّهَ خُطاه ، كان حادثةً فاجعةٌ ذهب ضحيّتها حاجٌّ إيراني ، أعجله القيْء أثناء الطواف ، فتلقّى ذا بطنه بثوبه . وخرج مُسرعاً من المسجد الحرام . فتلقّاه شرطيٌ سأله عمّا يحمله في ثوبه . ولكن المسكين عجز عن إفهام الشرطي حقيقة الأمر ، لأنه لا يُحسن العربيّة . فساقه إلى القاضي الذي حكم بضرْبِ عنقه لأنه شيعي . والشيعة عنده إنما يحجّون إلى النجف وكربلاء. فإذا هم قصدوا بيت الله الحرام فإنما لغرضٍ واحد هو تنجيسه وإهانته . وهكذا ضُربت عنق هذا البرئ بسبب جهل وقسوة القاضي .

من الممكن أن يكون القُمّيُ قد تأثّر لِما نزل بمواطنه . ومن الواجب أن نعتقد أنه كان أشدَّ غضباً ، غضبَ أي إنسانٍ مُستنير، لما قدّمه القاضي من حيثيّات لئيمةٍ وغبيّةٍ بين يدي حكمه الجائر . ولكننا لا نقبل أن نعتبر هذه الحادثة ، على فظاعتها ، السببَ الأساس لاستدارته المُفاجئة على نمط حياته المُتوقّع . ليس لأنها غير كافية ، خصوصاً في حيثيّات الحُكم . بل لأن ما هو أكبرَ وأشدَّ خطورةً وأفدحَ مغزىً كان عالقاً ناشطاً في الأوان نفسه . ومعه يكون اعتبارُ تلك الحادثة حافزاً وحيدا لديه جهلاً منّا وتجهيلاً للقُمّي .

في ذلك الأوان ، كما قُلنا ، كانت الحركة الصهيونيّة والقُوى الكُبرى المُتعاونة معها تصِلُ الليلَ بالنهارِ تحضيراً لاغتصاب فلسطين ، وإخراجِ أهلها من ديارهم . وغنيٌ عن البيان أن عنواناً كبيراً كهذا حقيقٌ بأن يُثيرَ موجةَ غضبٍ عارمةٍ لدى إخوانهم في كافة الأقطار . حقٌّ أن العالَم الإسلاميَّ كان آنذاك في حالةِ عطالةٍ سياسيّةٍ وعسكريّةٍ ، بسبب السيطرةِ الاستعماريّةِ الكاملة عليه . ولكنّ الشعوبَ المُسلمة وحسّها العامّ من اغتصاب أرضٍ إسلاميّةٍ ، بما فيها من مُقدّسات ، قوّةٌ ليس لأيّ إنسانٍ عاقلٍ أن يتجاهلها .

في ذلك الظّرفِ العصيب ، الذي كان يقتضي تكاتُفَ المسلمين جميعاً على دفعِ الخطر الوشيك . وبينما كان المُجاهدون الفلسطينيّون يخوضون حرباً يائسةً ضدَّ الانتداب الإنكليزيّ لبلدهم ، الذي لم يُوفّر وسيلةً لتسهيلِ الهجراتِ اليهوديّةِ إلى فلسطين ، تحتَ شعار وعد بلفور المشؤوم . ، صدرتْ في وقتٍ واحدٍ تقريباً عدّةَ كُتُبٍ في مصر وفلسطين ولبنان وسوريّة والهند. الأمرُ الجامعُ بينها ، العملُ على إثارةِ فتنةٍ مذهبيّةٍ بين السُنّةِ والشيعة . بالنّيلِ من الشيعةِ ، ورمْيهم بصنوف البهتان ، إلى درجةِ إخراجهم عن الإسلام . حصلَ ذلك ، وكأنما بتنسيقٍ مُسبَقٍ بينهم ، دونما أدنى مُقتضٍ أو سببٍ ظاهر. وكان أقذعهم سُباباً ، وأفحشهم قولاً ، ويا للغرابة ، الفلسطيني محمد إسعاف النشاشيبي ، في كتابه " الإسلامُ الصحيح " . مع أنه

ينبغي أن يكونَ الأكثرَ حِرصاً وعملاً على وحدة الصفّ الإسلامي . لِما في ذلك من مصلحةٍ واضحةٍ لبلده وشعبه المُهدّد في مصيره .

لسنا ندري ، وأنّى لنا ، مَن الذي أوعز أو دفع أو أغرى أولئك بالخروج على الناس بذلك الخطاب الفتنوي . ولكنّ توقيتَ خروج تلك الكُتُب في أزمانٍ مُتقاربةٍ في ذلك الظرف ، دليلٌ كافٍ على أنها خرجتْ من راسٍ واحد .

وغنيٌ عن البيان أن الحركة الصهيونيّة هي المُستفيد وصاحبُ المصلحة الأوّل في مشروع الفتنة هذا . ممّا يدعو إلى الظنّ القويّ أنها هي التي أوعزتْ أو دفعتْ بذلك الاتجاه . ونحن نعرفُ أنها بتغلغُلها في مسامِّ الدنيا ، تحت مُختلفِ الأسماءِ والعناوين ، لن تُعدَمَ الوسيلةَ إلى ذلك ومثله .

ولقد أثارتْ تلك الكُتُب ضجّةً هائلةً ، اجتاحتْ العالَمَ الإسلاميَّ من أدناه إلى أقصاه . وتجاوبتْ جنباته بسيلٍ من الرُّدود الغاضبة . واستتتبعتْ هذه ردوداً على الرُّدود . ممّا كان بمجموعه أسوأ ظرفٍ للمُواجهةِ القادمة .

هوذا ما نُسمّيه بالمُشاغلة . أي افتعال الشروط التي تتركُ الخصمَ مشغولاً بمشاكله الخاصّة ، والتافهة غالباً ، عن مواجهة الخطر الحقيقي . مع أنه يراه ، ويملكُ القدرةَ على دفعه ، أو ، على الأقلّ ، مُدافعته ، إن هو استهدى بحِراكه بسُلّم أولويّات ، وعمل على رصّ صفوفه ، وتحرّرَ من عُقده التاريخيّة . ولكن هيهات في ظلّ استثارة الغرائز وردود الفعل الغرائزيّة أيضاً عليها .

(٣)

سنة ١٩٣٨م ، بعد أن اكتفى من إعداد نفسه ، ورأى أنه غدا مالكاً لزمام الحديث بالعربيّة ، يمّمَ شطرَ القاهرة . ولقد أشرنا من قبل أنه بخطوته هذه يتتبّعُ آثار سلفه ومُواطنه جمال الدين الأفغاني . وما من شكٍّ في أن الرجليَن قد استهديا في خيارهما هذا بما كان للجامع الأزهر آنذاك من مكانةٍ عاليةٍ لدى المسلمين كافّةً . بوصفه أكبرَ مركزٍ علميٍّ إسلاميٍّ في العالَم . ومصدرَ الكلمة الفصل في مُختلف القضايا والشؤون الدينيّة .

لذلك فقد رأينا الشيخَ القُمّيَّ ما إن استقرّ به المقام استقراراً ما في القاهرة حتى اتجه إلى جامعها الأزهر . فدخل على شيخه آنذاك الشيخ محمد مصطفى المراغي ، وطفق يُحدّثه عمّا آلَ إليه أمرُ المسلمين من تشتُّتٍ وتباغُض . وما من ريبٍ في أنه في حديثه هذا قد طوّف بالخطر الماثل على قلب العالَم الإسلاميّ . وأشار إلى ما أنبتته الاستثارة الفتنويّة من حالةٍ حرِجَةٍ على حافة الاقتتال المذهبي في أكثر من منطقة تماسّ . وما من ريبٍ أيضاً في أن

الشيخ المراغي كان ، بحكم منصبه العالي وثقافته الواسعة ، لا يقلّ معرفةً عن مُخاطبه بما أقلق باله وحمله إلى مصر البعيدة . وأنهى القُمّيُ مُطالعته بأن طرح على الشيخ فكرةَ عملٍ ما يتناسبُ مع المُشكلة الآخذة في التفاقُم .

والذي يبدو للمتأمّل في ما استجاب به الشيخُ عمليّاً ، أنه وافق على تشخيص الحالة الإسلاميّة . ورحّب بضرورة العمل على علاجها. ولكنه كان، بحكم صفته التمثيليّة المذهبيّة ، عاجزاً عن اتخاذ المُبادرة بنفسه . فاقترح على القُمّي أن يبدأ الدعوة إلى أفكاره بإلقاء المُحاضرات في الأزهر وخارجه . كما أعانه في الاتصال برجال الأزهر . فكان يجمعه بمَن يعرف عنهم الميلَ إلى التقارب بين المذاهب . ومن هذا الطريق نجح في بناء علاقةٍ شخصيّةٍ بطائفةٍ من علماء الدين والمثقفين . وفي غضون ذلك كان قد استأجر بيتاً متواضعاً لسكنه . وما ندري كيف كان يتدبّر أمر نفقاته . ولكنّ امرئً من مثله ، اعتاد أن يكتفي من أمر دُنياه بالقليل والضروري ، لم يكُن أمرُ نفقاته بالهمّ المُقلق . والظاهرُ أنه كان يتلقّى بعض المعونات المادّيّة من أسرته .

على هذا النحو سارتْ حياةُ القمّي في مصر مُدّة سنةٍ أو تزيدُ قليلا . غدا أثناءها شخصيّةً معروفة ، تلقى التقدير من فريقٍ واسعٍ من معارف رجالها . لكن نشوبَ الحرب العالميّة الثانية بدّل الأجواء من حوله ، وألجأه إلى وقْف ما كان يعملُ عليه . ثم غادر مصر عائداً إلى وطنه .

في إيران تابع أعماله في نطاق الدعوة إلى التقريب والتقارب . فكان حيثما حلّ يُلقي المُحاضرات ويُجري المُقابلات مُبيّناً ضروةَ التعارف والتآلف ، ووجوبَ التخلّي عن كلّ مايُباعدُ ما بين المسلمين . وفي السنة ١٩٤٥م التقى السيّد حسين البروجردي ، أعلى الزعماء الدينيين في إيران ، وبيّن له أفكاره . ووصفَ رحلته إلى مصر، والمرحلةَ التي وصلَ إليها في كسْبِ مؤيّدين له فيها . وكان السيّد البروجردي لا يقلُّ عن مُخاطبه اهتماماً بتوحيد كلمة المسلمين . وانتهى اللقاءُ الهامّ بإعلان السيّد أنه يؤيّد أعماله ، وأنه سيُقدّم له ما يلزم من دعمٍ مادّيٍ ومعنوي . وبذلك كسبتْ أُطروحةُ القُمّي تأييدَ أكبر أقطاب السُنّةِ والشيعة .

(٤)

سنة ١٩٤٦م رجع إلى مصر. ليبدأ مرحلةً جديدةً من العمل . من خلفه علاقاته الواسعة الإيجابيّة بأعلامها . ومن أمامه وعدُ السيّد البروجردي إياه بالدّعم والمُساندة . وسرعان ما ظهرتْ النتائجُ الطيّبةُ لمساعيه . ففي شهر شباط / فبراير من السنة التالية أعلن تأسيسَ "**دار التقريب بين المذاهب الإسلاميّة**" . وكان من أعضائها المؤسّسين ، بالإضافة إلى

الشيخ القُمّي ، الشيخ عبد المجيد سليم الذي خلفَ الشيخ المراغي في مشيخةِ الأزهر، والشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر فيما بعد ، والشيخ عبد العزيز عيسى ، وحسن البنّا مؤسّس جماعة الأخوان المُسلمين ، ومحمد علي علوبة . ثم انضمّ إليهم فيما بعدُ الشيخ أحمد حسن الباقوري وزير الأوقاف ، والشيخ محمد الغزالي الباحث والمؤلّف الإسلاميّ الشهير . ومن علماء الشيعة الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء والسيّد عبد الحسين شرف الدين والشيخ حبيب آل إبراهيم . واختير الشيخُ القمّي لمنصب السكرتيرالعامّ للدار. ومع ذلك فإن الذي كان يوقّع رسائل الدّار غالباً هو محمد علي علوبة . هكذا ، فبعد زُهاء العشر سنين من العمل ، تكلّلت مساعيه بنجاحٍ غير مسبوق . وصار ما كان عنده فكرةً وحُلُماً وحافزاً هيئةً رسميّةً مُستعدّةً للعمل لِما ندبهم إليه ، لم يجتمع من قبلُ مثلُها بالنظر لمكانة الرجال الذين التأموا فيها . كان ذلك إنجازاً مُذهلاً ، حقّقه رجلٌ لم يملك يوماً سوى سلامة القصد ، والإخلاص في العمل ، والبراءة من الأغراض ، والمثابرة . وذلك درسٌ جديرٌ بأن يُقرأ .

في شهر كانون الثاني / يناير ١٩٤٩م بدأتْ الدارُ إصدارَ مجلتها الشهيرة " رسالة الإسلام " . وهو اسم ما من ريبٍ في أن الهيئة قد اختارته بعناية ليحملَ هُويّتها إلى القارئ . وقد أوكلتْ أمرَ إدارتها إلى أحد الأعضاء المؤسّسين للدار الشيخ عبد العزيز عيسى . وثابرتْ على الصُدور مُدّة أربعةٍ وعشرين عاماً . وترأّس تحريرها الشيخ الدكتور محمد محمد المدني بعد مديرها الأول . وما من حاجةٍ للقولِ أن أكثر أبحاثها كانت تدورُ على مسألة التقريب غرضاً ومنهجاً . والحقيقةُ أن أعدادَ هذه المجلّة ما تزال حتى اليوم سجلاً لا مثيلَ له في أبحاثها ودراساتها ، يلجأ إليها الباحثون للاستفادة من أفكار كُتّابها في هذا النطاق . ولذلك كان قرارُ إعادة طباعتها من قِبَل "المجمع العالمي للتقريبِ بين المذاهب الإسلاميّة" قراراً حكيماً . استُقبل بترحابٍ كبير من كل الذين يعرفون القيمة العلميّة والمكانة التاريخيّة التي تتمتّعُ بها .

من أبرز ثمرات النهج التقريبي إجمالاً الفتوى التي أصدرها الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر بعد الشيخ عبد المجيد سليم ، بتاريخ نيسان / إبريل ١٩٦٠م ، جواباً على استفتاءٍ وُجّهَ إليها ، جاء فيه :

" إن بعض الناس يرى أنه يجبُ على المُسلم ، لكي تقعَ عباداتُهُ ومعاملاتُهُ على وجهٍ صحيح ، أن يُقلّدَ أحدَ المذاهبِ الأربعة المعروفة . وليس من بينها مذهبُ الشيعة الإماميّة ولا الشيعة الزّيديّة . فهل تُوافقون فضيلتكم على هذا الرأي على إطلاقه ، فتمنعون تقليدَ مذهب الشيعة الإماميّة الاثنى عشريّة مثلاً ؟ "

فقال الشيخُ في الجواب :

" إنّ الإسلامَ لا يُوجبُ على أحدٍ من أتباعه اتّباعَ مذهبٍ مُعيّن . بل نقولُ ، إنّ لكلِّ مُسلمٍ الحقُ في أن يُقلّدَ بادئ ذي بدء أيَّ مذهبٍ من المذاهب المنقولة نقلاً صحيحاً ، المُدوّنةُ احكامها في كُتُبها الخاصّة . ولمَن قلّدَ مذهباً من هذه المذاهب أن ينتقلَ إلى غيره ، إيَّ مذهبٍ كان . ولا حرجَ عليه في شئٍ من ذلك . فينبغي للمُسلمين أن يعرفوا ذلك ، وأن يتخلّصوا من العصبيّة بغير الحقّ لمذاهبَ مُعيّنة . فما كان دينُ الله ، وما كانت شريعته ، بتابعةٍ لمذهب ، أو مقصورةً على مذهب . فالكلُّ مجتهدون مقبولون عند الله تعالى . يجوز لمَن ليس أهلاً للنظرِ والاجتهادِ تقليدهم ، والعمل بما يُقرّونه في فقههم . ولا فرقَ في ذلك بين العبادات والمعاملات " .

إن مَن يعرف تاريخَ الصّراع ، الدّامي أحياناً ، الذي نشب تحت عناوين مذهبيّة ، وغالباً لأغراضٍ سُلطويّة ، أهلٌ لأن يعرفَ بالتالي حجمَ الاختراق الذي اجترحتهُ هذه الفتوى البالغة الشّجاعة . لقد أعادتْ بتلك الأسطُر المعدودات الحالةَ المذهبيّة إلى أُصولها الاجتهاديّة ، بوصفها اختلافاً في الرأي . وما كان أحدٌ من الأئمّة يرمي إلى تأسيس مذهب ، وما كان يقبل أو يتصوّر أن اجتهاداته ستوظّفُ في مستقبل الأيام لتفريق المسلمين .

ولقد جرَتْ محاولاتٌ من بعد لدفْعِ الشيخ شلتوت إلى الرجوع عن فتواه . ومن ذلك أنه قيل له :" إنّ الشيخ القُمّي قد خدعك واستحصل منك الفتوى " . فكان من جوابه :" لو كان الشيخُ القُمّيّ قد خدعني فنعم ما فعل . فأنا مؤمنٌ بإخلاصه . وأسألُ الله سبحانه أن يحشرني معه يومَ القيامة " . وبعد وفاةِ هذا الشيخ الجليل اتصلتْ جهةٌ غير مصريّة بخلفه الشيخ الفحّام ، وطلبت منه إصدار فتوى تنقض فتوى الشيخ شلتوت ، لكنه أبى بشدّة . وقال :" إنّ فتوى الشيخ محمود هي فتواي . وهو أُستاذي " .

كما نذكرُ في هذا السياق ، قرارَ جامعة الأزهر أن تكون دراسة فقه الشيعة الإمامية والزيديّة من ضمن المناهج الدراسيّة المعمول بها في الكلّيات الشرعيّة . وقرار كليّة الإلهيّات في إيران تدريسَ الفقه السُنّي . وأن بعض الآراء الفقهيّة الشيعيّة أُخِذَ بها في قوانين الأحوال الشخصيّة المعمول بها في المحاكم المُختصّة . وأن كُتب الفقه والتفسير الشيعيّة غدتْ تُطبعُ

وتُتداول في مصر . وهذا كلّه يدخلُ في صميم غايات دار التقريب .

(٥)

عند هذا الحدّ يبدو أن الشيخ القُمّيّ قد اطمأن إلى أن النهج التقريبيّ صار له رجاله العاملون الفاعلون . وما بقي من ضرورةٍ لمُواكبته الشخصيّة له . ولذلك فقد بات يُغادرُ مصرَ إلى وطنه أو إلى باريس حيث يُقيمُ أحدُ أبنائه . ولكن زياراته لها أخذتْ مع الوقت تتباعد ، ومكثُه فيها يقصُر . وذلك ، فيما يبدو ، لأسبابٍ منها تعبهُ وعلوُّ سنّه ، ووفاةُ أكثر الأعضاء المؤسّسين لـ "دار التقريب" دون أن يوجد مَن يحلُّ محلّهم . ذلك أن النفوسَ والقلوبَ قد تغيّرتْ الآن كثيراً عمّا كانت عليه قبل رُبع قرن . وغدَتْ أرضُ الكنانةِ أرضَ دعوةٍ لإسلامٍ مُختلفٍ أبعدُ ما يكون عن ذهنيّةِ التقريبِ وثقافةِ الحوار. يحصرُ الحقَّ فيما يرى هو حصْراً أنه الحقّ . ويُكفّر مَن يختلف معه ، حتى في أُمورٍ هيّنة ، لا تُقدّمُ ولا تُؤخّرُ في فهم الإسلام ووظيفة المسلم . وأُغلق مقرُّها في ١٩ شارع أحمد حشمت بالزمالك . وما ندري ماذا كان مصيرُ مكتبتها الإسلاميّة الجامعة لكُتُبٍ مُختلف المذاهب ، ولا إلى أين أو مَن صارتْ عشراتُ الآلاف من الوثائق الثمينة التي تؤرّخ لأعمالها وعلاقاتها أثناء عمرها القصيرالحافل بجلائل الأعمال .

أمّا مجلتُها العظيمة "رسالةُ الإسلام" فقد توقّفتْ عن الصدور لمُدّةٍ بعد مقتلِ رئيس تحريرها المرحوم الشيخ الدكتور محمد محمد المدني بحادث سيّارةٍ في الكويت . ثم عادتْ إلى الصّدور لمُدّةٍ قصيرةٍ بإدارة علي السيّد الجندي . فأصدرتْ عددين فقط أوّلهما في شهر رجب ١٣٨٩هـ / سبتمبر ١٩٦٩م ، أمّا ثانيهما ففي شهر رمضان ١٣٩٢هـ / أكتوبر ١٩٧٢م . أي بفاصلِ ما يزيدُ على السنتيَن بينهما . ثم ماتت بصمت . مثلما تموتُ ساقيةٌ جفّتْ ينابيعها .

أما مؤسّسُ الدّار وباعثُ فكرة التقريب الشيخ محمد تقي القُمّي رحمات الله عليه ، فقد لقي حتفه في باريس بتاريخ ٢٠ آب / أغسطس ١٩٩٠م . بينما كان يُعدُّ العدّةَ للعودةِ إلى القاهرة ، ساعياً إلى إعادةِ إحياءِ " دار التقريب" و "رسالة الإسلام" . إذ صدمته سيّارةُ نقلٍ كبيرة ، بينما كان ينتقل راجلاً إلى محلّ سكناه المؤقّت . وهو حادثٌ تحومُ الشكوك حول أنه كان قتلاً عمداً مُدبّراً .

—